Arabic and Foreign Sources Describing the Cultural Heritage of the Historic City of Fez

Aisha Rashid Alshamsi
Master's Student - University of Sharjah- College of Arts, Humanities and Social Sciences- Department of History and Islamic Civilization
u18200705@sharjah.ac.ae
Prof. Khireddine Youssef Chatra (Ph.D.)
University of Sharjah - College of Arts, Humanities and Social Sciences- Department of History and Islamic Civilization
kchatra@sharjah.ac.ae

DOI: https://doi.org/10.31973/rjvysr58

Abstract:

Fez, the ancient city with its history, attracted researchers, travelers, geographers, orientalists and scholars. as they were fascinated by its diverse architecture, such as the religious buildings , the military architecture like walls, gates, towers, "Kasbat", and other buildings such as palaces, schools, hotels, markets, and the like. In addition, the city of Fez had a widespread scientific status, where Al Qarawiyyin Mosque played a major role in reinforcing the scientific movement in the Maghreb, as it is considered the oldest university in the world. We intend through this study to shed light on all that has been written about the cultural heritage of Fes, especially the ancient architectural heritage. Among what is discussed is an extrapolation of all the Arab sources that provided detailed information about its original buildings, the most important architectural formations and the aesthetic elements that distinguish them. Then, we monitor the foreign sources that describe this architectural heritage. In this research, we have relied on a large number of Arab and foreign references, the most important of which is “Kitab Al Anis Al Muṭrib Birawḍ Al Qirṭas Fi Akhbar Muluk Al Maghrab Wa Tarikh Madinah Fas” (The Entertaining Companion Book in the Gardens from the Chronicle of the Kings of the Maghreb and the History of the City of Fes) by Ibn Abi Zar'a, "Kitab Janai Zahret Al A'as Fe Benaa Madinah Fas" (The Book of Reaping the Flower of Myrtle in Building the City of Fes), by Al Jaznai, "Kitab Wasf Ifriqiya" (the Description of Africa Book) by Hassan Al Wazzan, known as the African Lion, and "Fes Qabl Al Himaya" (Fes Before the Protection), by Roger Lauterno, and other references.

Based on the information in those references, and through the historical and descriptive approaches, the research found that some references mentioned the same architectural landmarks in general, but with different details, such as the city gates, their names, and the period in which they were built. The study hypothesized that - relying on a number of reliable primary references - that the city of Fez abounds with a cultural (intangible-architecture) heritage rooted in history, and that the city of Fes historically enjoyed a widespread scientific status. The study, primarily, relied on archival historical references that dealt with this topic and with some aspects of that era and the events that followed it. In addition, it did not overlook contemporary sources, as well as what was mentioned in the subsequent references from information and statistics on relevant aspects. These references contributed to introducing researchers to the cultural heritage owned by the city of Fes, to understand the historical development that occurred in this heritage, and to conduct comparative studies on what was left by the successive states that ruled them. In addition, they described their periods of prosperity, vigor, and periods of decline and retreat, by paying attention to the reconstruction of the city, with its various urban functions.

Keywords: Architectural heritage; Al Qarawiyyin Mosque; Fes, the cultural heritage.

المصادر العربية والأجنبية المُعرَّبة الواصفة للإرث الثقافي لمدينة فاس التاريخية

الباحثة عائشة راشد الشامسي
طالبة ماجستير، جامعة الشارقة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية– قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
u18200705@sharjah.ac.ae

أ. د. خير الدين يوسف شترة
جامعة الشارقة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية– قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
kchatra@sharjah.ac.ae

(مُلَخَّصُ البَحث)

جذبت مدينة فاس العتيقة وما تحمله من تاريخ عريق، أنظار الباحثين، والرحّالة والجغرافيين، والمستشرقين، والعلماء، من شتى العلوم والتخصصات، فقد افْتُتِنوا بعمائرها، وهندستها المعمارية المتنوعة، بغض النظر عن الوظيفة العمرانية التي أنشئت من أجلها؛ كالعمارة الدينية، وما تتضمنه من جوامع ومساجد، وزوايا، والعمارة العسكرية، وما يندرج في مضمونها من أسوار، وبوابات، وأبراج وقصبات، ومبانٍ، وما تشتمل عليه من قصور، ومدارس، وفنادق، وأسواق وقيساريا،ت وغيرها كثير. إلى جانب ذلك، فقد حظيت مدينة فاس بمكانة علمية واسعة الانتشار، أدى فيها جامع القرويين دوراً رئيساً في توطيد الحركة العلمية في البلاد المغاربية، باعتباره أقدم جامعة في العالم.

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على كل ما كُتِبَ عن الإرث الثقافي الذي تزخر به هذه المدينة، خصوصاً منه ذلك التراث العمراني العتيق، ومن جملة ما سيتم التطرق إليه هو أولاً استقراء كل المصادر العربية التي أوردت أخباراً تفصيلية عن مبانيها الأصيلة، وأهم التكوينات المعمارية والعناصر الجمالية التي تميزها، ثم يليها رصد المصادر الأجنبية الواصفة لهذا التراث العمراني.

ولقد تم الرجوع في هذا البحث إلى عدد معتبر من المصادر العربية والأجنبية، أهمها كتاب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، لابن أبي زرع، وكتاب «جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس»، للجزنائي، وكتاب «وصف إفريقيا»، للحسن الوزان، المعروف بليون الإفريقي، وكتاب «فاس قبل الحماية»، لروجيه لوترنو، وغيرها من المصادر. وبناء على المعلومات الواردة في تلك المصادر، واستناداً إلى المنهجين التاريخي والوصفي، توصل البحث إلى نتائج عدة، منها: اتفاق بعض المصادر في ذكر بعض المعالم العمرانية، على وجه العموم، بيد أنها تختلف في بعض تفاصيلها، كالاختلاف على بوابات المدينة، ومسمياتها، والفترة التي تم تشييد بعض هذه البوابات.

وافترضت الدّراسة – بالاعتماد على جُملة المصادر الأولية المعتمد عليها – أنّ مدينة فاس تزخر بتراث ثقافي (مادي – عمراني) ضارب الجذور في التاريخ، وأن مدينة فاس تاريخياً حظيت بمكانة علمية واسعة الانتشار.

وقد استقت الدراسة مادتها في المقام الأول من المصادر التاريخية الأرشيفية، كما اعتمدت على جملة المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع وتطرقت إلى بعض جوانب هذه الفترة وما يليها من أحداث، فضلاً عن ذلك، فإنها لم تغفل عن المصادر المعاصرة، فضلاً عمَّا ورد في المراجع اللاحقة من معلومات وإحصاءات تناولت جوانب ذات صلة بالموضوع.

لقد أسهمت هذه المصادر، في تعريف الباحثين بالإرث الثقافي الذي تمتلكه مدينة فاس، والوقوف على التطور التاريخي الذي طرأ على هذا الإرث، وإعداد دراسات مقارنة فيما خلَّفته الدول التي تعاقبت على حكمها، وفترات ازدهارها، وعنفوانها، ومراحل انحدارها وتراجعها، من خلال الاهتمام بتعمير المدينة، بمختلف وظائفها العمرانية.

الكلمات المفتاحية: التراث العمراني؛ جامع القرويين؛ مدينة فاس، الإرث الثقافي.

المقدمة:

تُعَّد مدينة فاس من أهم المدن الإسلامية، وأقدمها في المغرب الأقصى؛ فقد شكَّلت معالمها العمرانية، وآثارها العتيقة، منظومة متكاملة لإرثها الثقافي، الذي يتميز بغنى في عناصره ومجالاته، وتشعب في أشكاله وصوره، كما أنه مُعبر عن هوية المدينة وأصالتها، وعمقها التاريخي الذي يمتد إلى اثني عشر قرناً، أسهمت من خلاله الدول المتعاقبة عليها، في تعزيز مكانتها الفنية والمعمارية، وما قامت به من مشاريع عمرانية كبرى؛ كتخطيط أحيائها وأزقتها، وتعمير معالمها الرئيسة، من مساجد ومدارس وقيساريات، ومكتبات، وفنادق، وأسوار تحيط بها. (الطاهري وعوني،٢٠٢٠، ص٨-٩)

ومما لا شك فيه أن ما كتبه المؤرخون والرحالة والجغرافيين عن مدينة فاس، قد أسهم إلى حد كبير في نقل صور مختلفة لها عبر تاريخها، وسلط الضوء على أهم ما تمتلكه هذه المدينة من شواهد عمرانية، تؤكد المكانة التي تحتلها، والدور التاريخي الذي تزخر به، الأمر الذي أدى إلى اجتذاب المستشرقين وغيرهم للكتابة عنها. ونظراً لما تتمتع به مدينة فاس من قيمة كبيرة، فقد سعت كل دولة على مر الحقب، لاتخاذها عاصمة لها، أو معسكراً لأجنادها، ووفقاً لذلك، أُنْشِئَتْ بها الأسوار والبوابات، وحُصِّنَتْ بالقصبات والأبراج؛ لدرء كل طامع لاقتحامها، أو الهجوم عليها. وأقيمت بها جميع أشكال المباني الحضرية؛ حتى تتوافر على كل ما تحتاجه ساكنتها من منظومة متكاملة لنسيجها العمراني،إذ أوردت المصادر

التاريخية أخباراً عن بناء كثير من هذه الأبنية، التي سلطت الضوء على المدينة، وعمائرها المتعددة الوظائف، والتي ما زالت محتفظة بها. (أقصبي، ٢٠١٥، ص٧-٨)

١. أهمية البحث:

على ضوء تقدّم تتجلى أهمية البحث، ودوافع اختياره، ومنها التعرف إلى أهم المصادر التي تناولت مدينة فاس التاريخية وعمائرها بالوصف والتوثيق، لاحتوائها على معلومات قيمة حول هندستها المعمارية، وطرق بنائها، والذي أسهم بدوره في المحافظة على هذه المباني، وزيادة الوعي لدى المجتمعات بشأن أهميتها التاريخية، وتقدير التراث المعماري الذي تمتلكه، أدى ذلك إلى تشجيع الجهود المبذولة لحماية هذه المباني والحفاظ عليها، من قبل خبراء ترميم المباني القديمة، والتعرف إلى الأساليب المعمارية، والمواد المستعملة فيها، ما يضمن توافق أعمال الترميم، بما ورد في تلك المصادر، ومن ثم نقل المعارف المذكورة فيها، حول الأساليب المعمارية المتبعة قديماً، للحفاظ على أصالتها. كما أن هذه المصادر تسهم في دعم الإجراءات القانونية لحماية المباني القديمة، إذ تعد بمثابة دليل لتحديد المناطق والمواقع التاريخية، للعمل على حمايتها، الأمر الذي يمنع من تدميرها، والإضرار بقيمتها التاريخية.

ولقد استند البحث إلى جملة من المصادر، أهمها، الأنيسُ المُطْرِب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لعلي بن أبي زرع الفاسِّي[1]، الذي يعد مُالَّفَهُ أهم مصدر للتاريخ المغربي، منذ تأسيس الدولة الإدريسية، إلى العصر الذي عاش فيه الكاتب، وهو العصر المريني، بحسب ما ذكره عبد الله العروي، في كتابه الموسوم بـ«النبوغ المغربي في الأدب العربي»، حيث قال عن الأنيس المطرب: »هو أهم مصدر لتاريخنا الوطني منذ انفصال المغرب عن دولة الخلافة العباسية إلى هذا العصر، وقد اعتمده ابن خلدون وذكره ابن الخطيب في الإحاطة، وأثنى عليه كثير من العلماء...». (كنون، د.ت، ص٢١٢).

---

[1] ابن أبي زرع: (٧٤١هـ - ١٣٤٠م) هو أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن أبي زرع الفاسي، مؤرخ مغربي، صاحب أجمع تاريخ للمغرب، منذ قيام الدولة الإدريسية إلى وقته، وهو العصر المريني... وقد اختلف في اسمه ونسبه اختلاف كبير، والراجح ما ذكره عبد الله كنون، في كتابه النبوغ المغربي، حينما أورد ترجمة له، ولا يعرف عن حياته إلا القليل... وذكر الحلبي في الدر النفيس أنه كان عدلاً يحترف التوثيق بقسماط العدول بفاس، وذلك مما يدل على تثبته ونزاهته فيما نقل من الأخبار عن تاريخ الدول السابقة، والدولة التي عاصرها. ويعد كتابه المعروف بالقرطاس (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) أهم مصدر لتاريخ المغرب الأقصى، منذ انفصال المغرب عن دولة الخلافة العباسية، إلى هذا العصر، وقد اعتمده ابن خلدون وذكره ابن الخطيب في الإحاطة، وأثنى عليه كثير من العلماء. وله غير القرطاس، تاريخ مطول يسميه أزهار البستان في أخبار الزمان، يعتبر في حكم الضائع الآن. وقد كانت وفاته، رحمه الله، بعد سنة ٧٢٦. (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص٣٠٥. كنون، د.ت، ص٢١٢)

وثاني مصدر اعتمد عليه البحث هو، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، لعلي الجزنائي[٢]، إذ يضم في محتواه ذكرى تأسيس مدينة فاس، وأخباراً عن إنشاء الأسوار، وجامِعَيْها، وما تضمه من دور وأسواق وحمامات. وثالث مصدر عربي استند إليه البحث هو، وصف إفريقيا، للحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي[٣]، والذي يصنف مُؤلَّفه ضمن كتب الجغرافيا، معتمداً على مشاهداته، وخبراته الشخصية، وإن نقل عن مؤلفين آخرين، كأمثال ابن الرقيق القيرواني، وابن خلدون. (الوزان، ١٩٨٣، ص ١٥)

كما تم التطرق إلى بعض المصادر المُعرَّبة، كفاس قبل الحماية، لروجيه لوترنو، الذي سلط الضوء على مدينة فاس إبان الحماية الفرنسية، واقفاً على تراث المدينة العمراني، ومطلعاً على ما كتب عن فاس، سواء كانوا مؤرخين ورحالة مسلمين، أو رحالة وتجار وعيون ودبلوماسيين، أوروبيين محدثين، خصوصاً في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٥)

وكتاب إفريقيا لمارمول كربخال، الذي يحتل الدرجة الثانية بعد وصف إفريقيا للحسن الوزان، حيث يتحدثان عن الموضوع نفسه، ويذكر أحدهما ما أغفله صاحبه، إلا أن مارمول المعروف بتعصبه للمسيحية ضد الإسلام، كان كتابه مملوءاً بما استقاها من مكتبات الأديرة، و حوليات القساوسة التي يغلب عليها الأساطير الطافحة بالكراهية والحقد والتحامل على المسلمين، الأمر الذي أدى إلى اصطباغ كتابه بصبغة الانتقاص لكل ما له علاقة بالإسلام، و بإرثه العمراني. (كربخال، ١٩٨٩م، ص ٣-٤)

٢. إشكالية البحث:

تتمحور الأسئلة التي سيتم تناولها بالنقاش والتحليل، والإجابة عنها في هذا البحث من خلال عرض تساؤلات عدة، هي: ما المصادر العربية والأجنبية المُعَرَّبَة التي سلطت الضوء على الإرث الثقافي لمدينة فاس؟ ولماذا أولت الدول المتعاقبة على حكم مدينة فاس، بإحاطة المدينة بالأسوار، وتشييد البوابات فيها؟ وكيف أسهمت المصادر العربية والأجنبية المُعَرَّبَة في الحفاظ على التراث العمراني للمدينة؟ وما أهم البوابات التي أقيمت في كلتا العدوتين؟

---

[٢] علي الجزنائي: اشتهر بكنيته أبي الحسن، وبكتابه جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس... ينتمي إلى قبيلة جزنايـة (أكَزنَّايـة) الريفيـة المستقرة شمالي تازا. كما أنه عاش في القرن الثامن (١٤م) إذا عاصر الاضطرابات التي عمت المغرب بعد نكبة السلطان أبي الحسن المريني بالقيروان وغرق أسطوله أمام ساحل بجاية. (معلمة المغرب، ١٩٨٩م، ص ٢٩٩٨)

[٣] ليون الإفريقي (٩٥٧ه - ١٥٥٠م) الحسن بن محمد الوزان، أبو علي، الغرناطي أصلاً، الفاسي داراً، المسمى في أسرة يوحنا الأسد، والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الإفريقي: جغرافي من العلماء، رحالة، مؤرخ أندلسي. ولد في غرناطة، وهاجر طفلاً مع أبيه وبعض أقاربه إلى فاس، فتعلم بجامع القرويين، وكان من أسرة وجيهة... أسرة قرصان من الإيطاليين سنة ٩٢٣هـ... قرب جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابلي وعرفوا أنه من أهل العلم فقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر الملك برومية. (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ٢١٧-٢١٨)

وإلى أي مدى قامت المصادر العربية والأجنبية المُعَرَّبَة بوصف مدينة فاس وإرثها الثقافي؟ وما الأطروحات والبحوث التي تطرقت إلى وصف المدينة؟ وما الوظائف التي بنيت من أجلها فنادق فاس؟

جـ . فرضية البحث:

وافترضت الدّراسة – بالاعتماد على جُملة المصادر الأولية المعتمد عليها – أنّ مدينة فاس تزخر بتراث ثقافي (مادي–عمراني) ضارب الجذور في التاريخ، والدور المهم الذي أسهمت به المصادر في الحفاظ على المباني الأصيلة في المدينة العتيقة، من خلال احتوائها على تقنيات البناء التقليدية، المكانة العلمية التي حظيت بها مدينة فاس تاريخياً، واسعة الانتشار.

د. المنهجية المتبعة في البحث:

تقوم منهجيّة البحث على مناهج علمية عِدة، أهمها المنهج التاريخي من خلال دراسة تسلسل الأحداث التاريخية والسياسية المرتبطة بالفترة الزمنية للدراسة، بالإضافة للمنهج الوصفي الذي يقوم بوصف الأحداث والوقائع، في حين أنَّ المنهج التحليلي لَعِب دوراً عظيماً في تحليل الأحداث ورصد أي مُغالطات تاريخية جاءت في بعض المراجع التي تحدثت عن المدينة في الفترة الزمنية المدروسة.

١. المصادر العربية الواصفة الإرث الثقافي لمدينة فاس التاريخية:

تمهيد:

حظيت مدينة فاس باهتمامٍ كبيرٍ من قبل المؤرخين والعلماء، والجغرافيين وغيرهم، فأُلِّفتْ عنها الكتب والمصنفات والرسائل، وأُفْرِدتْ لها كتب مستقلة، استفاضت في الحديث عن تاريخها، وذكر أخبارها، وأعلامها، والرحَّالة الذين مروا بها، ومن دَرَسَ في مدارسها، وتتلمذ على يد أشياخها (الطاهري وعوني،٢٠٢٠، ص٧–٨)؛ حيث تسلط المصادر المكتوبة، الضوء على التراث المادي، وما يتضمنه من مبان، ومنشآت تاريخية، أو ما يصطلح عليه بالتراث العمراني في مدينة فاس، منذ نشأتها خلال الدولة الإدريسية، حتى الدولة العلوية، بحسب البعد الوظيفي الذي كانت تمارسه تلك المباني، دينية، أو عسكرية، أو مدنية، وقد اتفقت في بعضها واختلفت في الأخرى، وألقت الضوء على بعضها، وأغفلت ذكر الأخرى. (أقصبي، ٢٠١٥، ص٨)

ونظراً للمكانة التي تبوأتها فاس، كان لابد من توافرها على مبانٍ تخدم ساكنتها، والقاصدين إليها من تجار، ومسافرين، وطلبة علم؛ مما حدا بمن حكموا المدينة إلى تشييد العديد من المباني؛ كالجوامع، والمدارس، والقصور، والفنادق، والأسواق، والحمامات، وغيرها. وللحفاظ على الأمن والاستقرار السياسي في المدينة، أنشأت الدول المتعاقبة على

حكم مدينة فاس مباني ذات طابع عسكري؛ وذلك لإدراكها ضرورة إحاطتها بالأسوار، وتشييد البوابات والأبراج في محيطها، خصوصاً أنها أحد أهم المراكز التجارية الرئيسة، لوقوعها على طرق التجارة التي تربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب، ما أدى إلى اجتذاب التجار والمسافرين من مختلف الأماكن والبقاع إليها. وبالتالي جعلها عرضة لهجمات المغيرين، من أجل السيطرة على تلك الطرق، والهيمنة عليها. كما أن إحاطة المدينة بالأسوار والبوابات، أدى إلى استتباب الأمن في المدينة، والحفاظ على الدول وهيمنتها سياسياً.

وتوفر لنا المصادر العربية معلومات ذات قيمة كبيرة حول ما تمتلكه مدينة فاس من مبانٍ تحمل إرثاً ثقافياً لا يستهان به، فأفردت أخباراً عن تأسيس المدينة، ووصفاً مفصلاً عن مبانيها الأصيلة، أسهمت إلى حد كبير في الحفاظ عليها، فعلى سبيل المثال لا الحصر يفرد كتاب «المسالك والممالك» للبكري[٤]خبراً عن مدينة فاس، حيث يقول: «ومدينة فاس مدينتان مقترنتان مسوّرتان، بينهما نهر يطرد وأرجاء وقناطر، وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلس، وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخترق داره. وبالمدينتين أزيد من ثلاثمئة رحى، وفيهما نحو عشرين حماماً، وهي أكبر بلاد المغرب: «فاس بلد بلا ناس»، وكلتا عدوتي فاس في سفح جبل، والنهر الذي بينهما مخرجه من عين غزيرة في وسط مرج ببلاد مطغرة على مسيرة نصف يوم من فاس .«(البكري، ٢٠٠٣م، ص٢٩٨-٢٩٩)

وهناك مصادر أخرى جاءت على ذكر المدينة؛ كمسالك الأبصار في ممالك الأمصار للجغرافي ابن فضل الله العمري، فقد تضمن كتابه وصفاً مفيداً لفاس، وعلى وجه الخصوص فاس الجديد، في منتصف القرن الرابع عشر، فيقول: «فلما انتقل الملك إلى بني مرين...أبوا ألا يتخذوا لهم مدينة فاس دار ملك فاستوطنوها وبنوا معها ثلاث مدن موازية لها على ضفة الوادي المعروف بوادي الجوهر غرباً بقبلة فأوّلها المدينة البيضاء وتعرف بالبلد الجديد، بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق[٥]...ثم مدينة حمص، ويعرف موضعها بالملاح، بناها ولده

---

[٤] أبو عبيد البكري: (٤٨٧ه – ١٠٩٤م) عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، أبو عبيد: مؤرخ جغرافي، ثقة. علامة بالأدب... له كتب جليلة، منها «المسالك والممالك» غير كامل، طبع جزء منه باسم «المُغرب في ذكر إفريقية والمغرب» وقطع خاصة بالروس والصقلب، و«معجم ما استعجم» أربعة أجزاء، و«أعلام النبوة» و«شرح أمالي القالي». (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ٩٨)

[٥] يعقوب بن عبد الحق: (٦٠٧هـ ٦٨٥ه = ١٢١٠م – ١٢٨٦م) يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة المريني الزناتي، أبو يوسف، السلطان المنصور بالله: سيد بني مرين على الإطلاق، بربري، من أصل عربي... لما مات أخوه (سنة ٦٥٦ه) وولي ابنه (عمر بن أبي بكر) كان يعقوب في رباط تازا، فأقبل إلى فاس، فجاءه الناس يبايعونه، فقاتل عمر (إبن أخيه) فنزل له هذا عن الأمر، وجددت البيعة ليعقوب... وأمر ببناء «المدينة البيضاء» ملاصقة لفاس، وانتقل إليها بحاشيته وذويه. ولقد استمر غازياً ومجاهداً وبانياً مصلحاً إلى أن توفي بقصره في الجزيرة الخضراء بالأندلس ودفن برباط الفتح. (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ١٩٩- ٢٠٠)

أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف[٦]– والد سلطانها القائم الآن – بناها إلى جانب البيضاء، وربض النصارى المتخذ لسُكنى الطائفة الفرنجية المختصة بخدمة السلطان، ويطلق على هذه الثلاث المتخذات، اسم فاس الجديدة...والبيضاء وهي المسماة الجديدة آخذة من شمالي ربض النصارى إلى ضفة النهر، ويقع أول عمارة فاس الجديدة قبالة فاس العتيقة... وهناك فاس العتيقة على الضفة الشمالية والقصبة بها في غربيها مرجلة على الأرض لا تتميز على المدينة برفعة ولا ببناء عالٍ».(العمري، ٢٠١٠م، ص ٨٩)

كما حفظت هذه المصادر ما تمتلكه فاس من إرث ثقافي ضارب في القدم، وما تضمه من وصف دقيق لبعض عمائرها الأصيلة، أدى إلى الحفاظ عليها، وترميمها بالصورة التي كانت عليها، واعتبارها مصدراً مهماً معتمداً من قبل العاملين في مجال ترميم المباني المتهالكة، ما أسهم في إعادة إحيائها، واستدامتها، والحفاظ على الطرق التقليدية المستعملة في البناء والتعمير. كذلك مَكَّنَتْ المشتغلين بالتراث الثقافي، من جرد التراث الثقافي بشقيه المادي وغير المادي، وإعداد مسوحات خاصة بها، وإضافتها في السجلات الوطنية للتراث الثقافي، وكنتيجة لذلك تم إدراج مدينة فاس في عام ١٩٨١م، ضمن قائمة التراث العالمي من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، وذلك سعياً من المجتمع الدولي للمحافظة على المدينة العتيقة، وإنقاذ مبانيها من التلف والتدهور. (أقصبي، ٢٠٢٢م، ص٩٥)

والجدير بالذكر أن بعض الدراسات والأطروحات قد تناولت مدينة فاس بحثاً وتمحيصاً؛ كأطروحة الماجستير المعنونة بمدينة فاس بالمغرب الأقصى دراسة حضارية (١٧٢ – ٥٤١هـ)/(٧٨٩ –١١٤٧م)، للباحثة مريم براهيمي، فقد أوردت خبر تأسيس المدينة، وأنها مرت على مرحلتين: »المرحلة الأولى: أسست يوم الخميس ربيع الأول (١٩٢هـ/٨٢٨م) ووضع حجر الأساس للجزء الذي يعرف بعدوة الأندلس على الضفة الشرقية لنهر فاس، وقد بدأ ببناء الأساس ثم دور الإمام والمسجد الجامع الذي سمي بجامع الأشياخ... المرحلة الثانية: عدوة القرويين التي أُسِّست في ربيع الأول (١٩٣هـ/ ٨٢٨م)، فقد شرع إدريس في تشييد مدينة جديدة مواجهة للمدينة الأولى على الضفة المقابلة لنهر فاس، وعدوة القرويين

[٦]أبو سعيد المريني: (٦٧٥-٧٣١ هـ = ١٢٧٦ – ١٣٣١م) هو عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، السلطان أبو سعيد، ولقبه السعيد بفضل الله: من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ولي بعد وفاة ابن أخيه (سليمان بن عبد الله) سنة ٧١٠هـ، بناحية (تازا) وانتقل إلى فاس، ثم زار رباط الفتح وأمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة في (سلا) برسم جهاد الإفرنج، وعاد إلى فاس... وأرسل ابنه عمر إلى فاس (سنة٧١٣هـ) وكان ابنه هذا ولي عهده... فأعلن خلع أبيه وقاتله بين تازا وفاس، وجرح السلطان فعاد إلى تازا. ثم اختل أمر ابنه، فأقبل السلطان إلى فاس و استعاد عرشه، وبنى بها مدرسة عظيمة سميت بعد ذلك «مدرسة العطارين» ومرض في رحلة تازا، فتوفي في طريق عودته إلى فاس. (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ٢١٥)

هي أشبه ما يكون بقرية رعوية، وقد أقيم داخل الحي المسجد الجامع الذي عرف فيها بعد بدار القيطون...». (براهيمي، ٢٠١٨م –٢٠١٩م، ص٢٧)

وبالحديث بشيء من التفصيل عن المصادر العربية التي تناولت مدينة فاس، وتاريخ تأسيسها، وذكر أخبار إرثها الثقافي، تجدر الإشارة إلى كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لعلي ابن أبي زرع الفاسِّي، الذي اتخذ من تاريخ المغرب عموماً، وتاريخ مدينة فاس خصوصاً، موضوعاً له، بدءاً من تأسيس الدولة الإدريسية الحسنية، إلى عهد السلطان المريني عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المشهور بكنيته، أبي سعيد. ولا يكاد يخلو كتاب يتحدث عن مدينة فاس وتاريخها، إلا والقرطاس يتصدر قوائم مصادره، وأولى المستشرقون اهتمامهم بالكتاب، منذ بداية عصر النهضة، فترجم إلى لغات عدة، منها الفرنسية، والألمانية، والبرتغالية، والإسبانية. وقد اتبع ابن أبي زرع في كتابته لتاريخ مدينة فاس، طريقة تأريخ الدول؛ فيذكر أخبار كل دولة على حدة، من خلال ذكر نسبها، وتأسيسها، وسلاطينها، وأهم منجزاتهم، والأحداث التي واكبت هذه الدول، من أحداث اجتماعية واقتصادية وظواهر طبيعية، وغيرها. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٨– ٩)

ويأتي كتاب جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، في المرتبة الثانية، من حيث أهميته كمصدر مرجعي لتاريخ مدينة فاس، حيث يورد مؤلف الكتاب علي الجزنائي، أخباراً عن تأسيس المدينة من قبل الأدارسة الحسنيين، ومن ثم يتناول الإرث العمراني لها، من أسوار، وبوابات، وجوامع، ومدارس، وقصور، وفنادق وحمامات، وغيرها. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص٣)

هذا وقد اتُّخِذَ كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان المشهور بليون الإفريقي، مرجعاً ثالثاً، من المصادر العربية التي وصفت مكونات الإرث الثقافي العمراني للمدينة، باعتباره أحد أهم مكونات الإرث الثقافي لها، وفيما يلي، ذكر لأهم ما أوردته المصادر العربية السالفة الذكر، من مكونات للإرث الثقافي المادي، وعلى وجه الخصوص التراث العمراني لمدينة فاس.

- **أولاً: الأسوار والأبواب:**

تعدّ الأسوار مكوناً رئيساً للمدينة الإسلامية، فوجودها يضفي على المساكن المحيطة بها طابع المدينة، وتميزها عن البوادي، (أقصبي، ٢٠١٥م، ص١٣) ولقد بنيت الأسوار لأبعاد وظيفية عديدة، منها «توفير الأمن الحضاري الاجتماعي المرتبط بتهيئة ظروف جيدة للاستقرار، داخل مجموعة حضرية منسجمة، محدودة المعالم، وقابل للضبط من طرف السلطة الحاكمة... وتوفير جدار دفاعي طيلة مرحلة الاضطرابات السياسية». (فنان، د.ت، ص١١٢)

وتشير بعض المصادر إلى الأسوار والأبواب التي أقيمت في مدينة فاس بعدوتيها، منها: كتابا «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، لعلي بن أبي زرع الفاسيّ، الذي تناول تاريخ الدول التي تعاقبت على المغرب الأقصى، بدءاً بدولة الأدارسة، حتى بداية الدولة المرينية، في عهد أبي سعيد بن يعقوب المنصور، أي منذ عام ١٧٢هـ إلى عام ٧٢٦هـ = ٧٨٨م – ١٣٢٦م، وهي مدة تقارب الخمسة قرون ونصف. (كنون، ١٩٦٣م، ص٥٢)

وبما أن ابن أبي زرع قد ابتدأ في مطلع كتابه، بالحديث عن الدولة الإدريسية وتأسيسها، فمن البديهي أن يأتي على ذكر بناء مدينة فاس، وأن يقدم وصفاً لها، ولموقعها، ولأهم معالمها، ولقد وصفها قائلاً: «لم تزل مدينة فاس من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين، وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها، وهي كانت دار مملكة الأدارسة الحسنيين الذين اختطفوها ودار مملكة زناتة[٧]من بني يفرن[٨]، ومغراوة[٩]وغيرهم من ملوك المغرب في الإسلام، ونزلها لمتونة [١٠]في أول ظهورهم على المغرب... ومدينة فاس لم تزل أم بلاد المغرب في القديم والجديد، وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين .»[١١] (كنون، ١٩٦٣م، ص٥٣)

وكتاب جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، لعلي الجزنائيّ، الذي تضمن وصفاً شارحاً لتأسيس المدينة؛ حيث يورد الكاتب في مقدمة كتابه، ذكر من أسس المدينة من الأدارسة، وهو الإمام إدريس الثاني[١٢]، وبذلك تتفق رواية الجزنائي، مع رواية ابن أبي زرع، عن

---

[٧]زناتة: إحدى المجموعات القبلية الكبرى التي يقسم إليها المؤلفون العرب، قبائل البربر، سكان المنطقة الممتدة من واحة سِوا جنوبي مصر إلى سواحل المحيط الأطلسي مروراً ببرقة والمغربين الأدنى والأوسط، وبإدخال مجموع بلاد التوارك – الطوارق - في الصحراء الكبرى. (معلمة المغرب، ٢٠٠١م، ص٤٧١٦.)

[٨]بني يفْرَنْ: من المجموعات الزناتية الكبرى التي انتشرت بين نهر شلف بالمغرب الأوسط ونهر ملوية بالمغرب الأقصى... وإطلاق بني يفرن لا يعني اسماً عرقياً خالصاً بقدر ما يعني مصطلحاً عصبياً تحالفياً حوله منظومة قبلية زناتية متحدة في الأهداف ومتوافقة في المواقف الاجتماعية والسياسية، تطورت ضمن هذا الاتجاه منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الكبير إلى أن اختفت قوتها العصبية في منتصف القرن الخامس الهجري مع الفتح المرابطي، حيث سيطرت صنهاجة الجنوبية على مجالاتهم الحيوية القبلية. (معلمة المغرب، ٢٠٠١م، ص١٦٠٢-١٦٠٣)

[٩]مغراوة: إمارات تأسست بعدد من المدن المغربية، بين سنتي ٣٦٨هـ-٩٧٨م/ ٤٦٢هـ-١٠٧٠م. وكانت تحكم تحت مظلة أمويّي الأندلس والحجابة العامرية، ثم استقلت بعد ضعفها وزوالها. (معلمة المغرب، ٢٠٠١م، ص٧٢٢٠)

[١٠]لمتونة: أكبر قبائل صنهاجة وأقواهم شوكة وهي التي أقامت دولة المرابطين، وانتسب إليها جميع ملوكها. (معلمة المغرب، ٢٠٠١م، ص٧٠٦٤)

[١١]المرينيون (ملوك): ينسبون إلى بني مرين إحدى أهم قبائل زناتة التي أسست دولة بني مرين بالمغرب الأقصى. وتعتبر الدولة المرينية واحدة من أهم دول الغرب الإسلامي في العصر الوسيط. وهي رابع دولة حكمت المغرب الأقصى بعد الأدارسة والمرابطين والموحدين، وأطولهم مدة، إذا استمرت من منتصف القرن السابع الهجري إلى منتصف القرن التاسع (١٣م–١٥م). (معلمة المغرب، ٢٠٠١م، ص٧١٠٢)

[١٢]إدريس الثاني: (١٧٧هـ – ٢٩٣هـ = ٧٩٣م – ٨٢٨م) هو إدريس بن إدريس ين عبد الله بن الحسن المثنى، أبو القاسم: ثاني ملوك الأدارسة في المغرب الأقصى، وباني مدينة فاس. ولد في وليلي (بجبل زرهون، على نحو ٣٠ كم من مكناس) وتوفي أبوه وهو جنين، فقام بشؤون البربر راشد (مولى أبيه إدريس الأول وأمينه)

مؤسس مدينة فاس، بعدوتيها، وبناء الأسوار وأمكنتها، والأبواب وأسمائها، إلا أن هناك بعض أسماء الأبواب غير متطابقة بين الروايتين. (أقصبي، ٢٠١٥ م، ص ٥٩- ٦٦)

فيشير ابن أبي زرع في أكثر من موضع في كتابه القرطاس، على احتواء المدينة، لأسوار أحيطت بمدينة فاس، منذ الوهلة الأولى لبنائها؛ فقد ذكر في بداية تأسيس المدينة، على يد الإمام إدريس الثاني، بأنه »شرع في بناء سور عدوة الأندلس القبلي، فأدار السور على جميعها... وأدار الإمام إدريس، رضي الله عنه، سور عدوة القرويين، و ابتدأه من رأس عقبة علون، وصنع برأس العقبة باباً وسماه باب إفريقية، وهو أول باب صنع بالمدينة المذكورة، ثم هبط بالسور على عين دردورة حتى وصل به إلى عقبة الصعتر فصنع هنالك باباً وسماه باب حصن سعدون ثم هبط بالسور إلى أول أغلان فصنع هنالك باباً وسماه باب الفرس، ثم أدار السور مع إعلان حتى وصل به شفير الوادي الكبير الفاصل بين العدوتين...». (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٣٩- ٤٠)

وأشار الجزنائي عندما أورد خبر تأسيس مدينة فاس، عن الأسوار التي أحيطت بالمدينة، مبتدئاً الحديث عن تأسيس عدوة الأندلس، واستقرار الإمام إدريس في بداية الأمر فيها، وأمر ببناء سورها من جهة القبلة، ويذكر بأنه «فتح هنالك باباً سماه بباب القبلة، ثم مر بين الموضع المعروف بالفوارة وموضع زيتون ابن عطية، وفتح هناك باباً سماه الفوارة، ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية إلى الوادي الكبير، إلى برزخ وفتح هناك باباً سماه بباب المخفية...». (الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٢٤)

- **أهم الأبواب الواردة أسماؤها في كتابي القرطاس، و جنى زهرة الآس:**

أبواب عدوة القرويين:

١. باب إفريقية: يعد أول باب أقامه الإمام إدريس الثاني، بعدوة القرويين، ويتفق الجزنائي وابن أبي زرع على أنه فتح برأس عقبة عين علون. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص٣٩.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ١٠١)

٢. باب الفصيل: هو الباب الذي يخرج منه إلى بين المدينتين، أقامه الإمام إدريس الثاني بأغلان من عدوة القرويين، ويعرف في زمن الجزنائي بباب النقبة. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٦٤.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٢٥)

٣. باب الفرج: أطلق عليه بعد ذلك باب السلسلة، وقد أورده الجزنائي باسم باب الفرج، ويعرف بباب السلسلة، وما زال هذا الاسم مشهوراً بفاس، وإن اندثر الباب منذ ما يقارب

وقتل سنة ١٨٦ه، فقام بكفالة إدريس، أبو خالد العبدي، حتى بلغ الحادية عشرة، فبايعه البربر في جامع وليلي سنة ١٨٨ه، فتولى ملك أبيه وأحسن تدبيره.)لزركلي، ٢٠٠٢م، ص٢٧٨)

الألف عام، والذي كان يطلق عليه باب الفرج. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص٤٠.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٢٥-١٠٧)

٤. باب الحديد: يذكر ابن أبي زرع أن هذا الباب يقع في أعلى القلعة مما يلي الجرف، أما الجزنائي فقد ذكر أن فاس عرفت بابين دعي كلاهما باب الحديد، أثناء تاريخها، أحدهما أقامه الإمام إدريس الثاني، قرب عيون ابن الصادي بين باب السلسلة وباب القلعة، والثاني فتح فيما بعد، أما ابن أبي زرع، الذي عَدَّهُ محقق كتاب جنى زهرة الآس، أقدم وأصح من الجزنائي رواية، وأهم مصدر ينقل عنه، فكلام صاحب القرطاس، لا يفيد بوجود بابين بهذا الاسم، وإنما باب واحد فقط، وهو يجعل موقعه بالجرف، لا بعيون ابن الصادي أو ابن اللصاد، الذي ذكره الجزنائي. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٠.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ١٠٢-١٠٣)

٥. باب حصن سعدون: أقامه الإمام إدريس، بعقبة الصعتر، وخلال مدة حكم الأمير عجيسة بن المعز، أقام باباً فوق باب حصن سعدون، وأطلق عليه باب عجيسة، وقد أسقط الناس العين وأضافوا الألف واللام بدلاً عنها، فسمّوه الجيسة. وقد انفردت رواية ابن أبي زرع على ذكر اسم حصن سعدون، على هذا الباب، حيث إن رواية الجزنائي تورد هذا الباب باسم آخر، وهو باب القوس. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٢.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٦٧-٦٨)

٦. باب الشريعة: بحسب رواية ابن أبي زرع، فإن هذا الباب يفضي إلى الكهوف التي بقرب الوادي بن مطامر الزرع وجنة المصارة، أي الفضاء الفسيح الواقع خارج أسوار المدن. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤١). أما رواية الجزنائي فقد أوردت هذا الباب باسمين مختلفين؛ أولهما باب الشريعة، وهو نفسه باب المحروق الحالي، أما الاسم الثاني فهو باب المحروق، إذ كان يطلق عليه باب الشريعة، فلما أمر ببنائه الخليفة الموحدي محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة ٦٠٠هـ - ١٢٠٤م، وافق بناؤه ثورة رجل يدعى العبيدي، فقبض وسيق إلى فاس فقتل وعلق رأسه، وأحرق، على باب الشريعة في اليوم الذي تم فيه بناء الباب وركب مصراعه، فأطلق على الباب من ذلك التاريخ باب المحروق. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص١٠٤- ١٠٧)

٧. باب الفرس: تفردت رواية ابن أبي زرع على ذكر هذا الباب، في كتابه القرطاس، عن الجزنائي، ويعد ثالث أبواب عدوة القرويين، وأقامه الإمام إدريس في موقع أغلان، بين باب حصن سعدون، وباب الفصيل. (أقصبي، ٢٠١٥م، ص٦٧)

٨. باب الجيسة :ذكر ابن أبي زرع باب الجيسة، وأنه من أبواب عدوة القرويين، أنشأه الأمير عجيسة بن المعز، فوق باب حصن سعدون، وسماه باب عجيسة. كما أورد الجزنائي في

روايته عن الباب، ذاكراً إياه باسم باب عجيسة، إذ قال: »أقامه الأمير عجيسة فوق باب حصن سعدون، وسماه باسمه... فلم يزل الباب على حاله، إلى أيام الخليفة الموحد الناصر ابن يعقوب المنصور، فأمر ببناء سور فاس الذي هدمه جده الخليفة عبد المؤمن بن علي... وفتح باباً كبيراً فوق باب عجيسة القديم، وبالقرب منه، وترك باب عجيسة على حاله، ثم أمر بتغيير اسم الباب الذي بناه وترك إضافته إلى عجيسة، فأسقط الناس حرف العين من عجيسة، وجعلوا الألف واللام عوضاً عنها، فقالوا باب الجيسة أو (الكيسة)». (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤١- ٤٢.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ١٠٥)

أبواب عدوة الأندلسيين:

١. باب الفوارة: أورد ابن أبي زرع في روايته، أن باب الفوارة يُفضي إلى مدينة سجلماسة، وهو الآن مبني – أي مغلق – ويعرف بباب زيتون ابن عطية، ولم ينفتح من سنة ٦٢٠هـ، أما الجزنائي فقد ذكر أن الإمام إدريس الثاني عندما مر بين الموضع المعروف بالفوارة وموضع زيتون ابن عطية، فتح هناك باباً سماه بباب الفوارة، نسبة للمكان الذي فتح فيه الباب. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٠.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٢٤-١٠٧).
٢. باب القبلة: بحسب رواية ابن أبي زرع، فإن هذا الباب لم يزل قائماً، إلى أن هدمه دوناس حين غلب أمره على عدوة الأندلس، بعد ذلك أعاد بناءه دوناس[١٣]بن حمامة بن المعز بن عطية الزناتي المغراوي. أما رواية الجزنائي فهذا الباب شهير بعدوة الأندلس، ويعد أول باب بني بها، وبقي على حالته الأولى، إلى أن هدمه الأمير دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية الصنهاجي، ثم أعاد بناءه ابنه فتوح الذي كان أميراً على عدوة الأندلس، الذي كان على خلاف مع أخيه عجيسة أمير عدوة القرويين، ما أدى إلى اقتتالهما؛ فبنى فتوح قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذان، وأعاد بناء باب القبلة، ونسب إليه فصار يطلق عليه باب فتوح منذ ذلك التاريخ. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٠-٤١.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٢٤-١٠٦)
٣. باب الشيبوبة: يقابل باب الفصيل في عدوة القرويين، كما جاء في القرطاس لابن أبي زرع، وذكر الجزنائي أن هذا الباب كان يقابل باب الفصيل، وهو معروف الآن بباب النقبة من عدوة القرويين... وقد اندثر الباب وبقي اسم الحي المضاف إليه. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٠.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٢٤-١٠٨)

[١٣] دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي:- 000) ٤٥٢ هـ = ٠٠٠-١٠٦٠م) أمير فاس وابن أميرها. من قبيلة مغراوة من زناتة، ولي فاساً وأحوازها بعد موت أبيه سنة ٤٤٠ه. وفي زمنه عظمت فاس وعمرت. (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ٦)

٤. باب أبي سفيان: اتفقت روايتا ابن أبي زرع و الجزنائي على أن إدريس هو من أقام هذا الباب، برأس حجر الفرج، إلا أن ابن أبي زرع أضاف أنه يفضي إلى غمارة وإلى الريف، وهو أصل باب مسافر الذي يعرف اليوم بباب سيدي بوجيدة. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص١٠١)

٥. باب الكنيسة: يخرج إلى بلاد تلمسان، وهدمه عبد المؤمن بن علي، حينما تولى أمر المغرب، ودخوله مدينة فاس، إلى أن بناه الناصر بن المنصور الموحدي عندما جدد سور المدينة، فأطلق عليه باب الخوخة، وذلك في عام ٦٠١ هـ. ويذكر الجزنائي أن باب الكنيسة هو «باب الخوخة الحالي، وبناه إدريس بكرواوة، ومنه يخرج إلى تلمسان، وحارة المرضى، ولم يزل الباب على ما بناه عليه إدريس الأول، إلى أن هدمه عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحد عندما فتح فاس وهدم أسوارها سنة ٥٤٠ هـ، فبقي مهدوماً إلى أن بناه الخليفة الناصر سنة ٦٠١ هـ، وسماه باب الخوخة. ويعزو سبب تسميته بباب الكنيسة؛ لسكنى طوائف من النصارى بالقرب منه بعد تأسيس مدينة فاس». (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٠- ٤١.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ١٠٣-١٠٤).

٦. باب قبالة باب الفرج الواقع في عدوة القرويين: ورد ذكر هذا الباب في رواية ابن أبي زرع فقط، في كتابه القرطاس، ولم يرد ذكره لدى الجزنائي، في كتابه جنى زهرة الآس. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص٤٠)

٧. باب الجيزيين: ورد ذكر هذا الباب، لدى الجزنائي، حيث ينسب إلى قبيلة كانت مستقرة قربه عند تأسيس المدينة، وهو باب الحمراء الحالي. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص١٠٢)

٨. باب المطمر: «هو الباب الذي يدخل منه حالياً إلى ساحة ابن البغدادي، والذي كان مغلقاً ثم فتح حديثاً». (المصدر نفسه، ص ١٠٥).

مما سبق يتبين أن الأبواب الوارد ذكرها لدى ابن أبي زرع، و الجزنائي، يوجد بها اختلاف في ذكر أسماء وعدد أبواب كل من العدوتين، فابن أبي زرع أورد أسماء خمسة أبواب في عدوة الأندلسيين، ذكر منها أسماء لأربعة أبواب، دون ذكر الاسم الخامس، حينما قال: «... وعمل هنالك باباً يقابل باب الفرج من عدوة القرويين»، أما الجزنائي فأورد خبر ستة أبواب لعدوة الأندلسيين، وفيما يخص أبواب عدوة القرويين، فعند ابن أبي زرع يبلغ عددها ستة أبواب، أما الجزنائي فعددها يبلغ خمسة أبواب، ومع ذلك فإنهما يتفقان في ذكر بعض الأبواب، كباب الكنيسة في عدوة الأندلسيين، وباب إفريقيا وباب الفرج، في عدوة القرويين. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٠.الجندي، ٢٠٠٤م، ص ٦٧-٦٨).

- **ثانياً: المساجد والجوامع:**

ورد ذكر مساجد فاس، في مصادر عدة، منها كتاب الأنيس المطرب، وجنى زهرة الآس، ووصف إفريقيا، ففي رواية ابن أبي زرع في كتابه القرطاس، ذكر خبر بناء الإمام إدريس أول جامع في عدوة الأندلس، وعرف باسم جامع الأشياخ، وأقام الخطبة فيه، كما بنى جامعاً في عدوة القرويين، عرف باسم جامع الشرفاء، وأقام فيه الخطبة... ولم تزل تقام في المسجدين الخطبة، حتى جاء وفد من القيروان إلى الإمام إدريس، فأنزلهم حوله بعدوة القرويين، وكانت فيهم أختان، فاطمة أم البنين، ومريم، بنتا محمد الفهري، فبنت فاطمة جامع القرويين، وبنت أختها مريم، جامع الأندلس... والجدير بالذكر أن ابن أبي زرع قد أفرد في مواضع عدة في كتابه القرطاس، أخباراً خاصة ببناء الجامعيين، والمراحل التي مرت بهما من ترميم، وتوسعة، حتى الحقبة التي عاصرها الكاتب؛ وهو عام ٧٢٦هـ. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٣٨-٤٣-٥٤-٥٥).

أما رواية الجزنائي، التي ذكرها عن مساجد وجوامع فاس، في كتابه جنى زهرة الآس، فقد جاء على ذكر، بناء الإمام إدريس الثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلس، ويعد أول مسجد أسس بفاس، عرف بعد ذلك بالجامع الأنور (جامع النور). كما أنه بنى بعدوة القرويين جامعاً للخطبة متصلاً بمنزله، وأطلق عليه مسجد الشرفاء، والذي يضم بين جنباته، الضريح الإدريسي. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٤٥-١٠٩-١١٢).

كما أورد الجزنائي، خبر بناء جامعي القرويين والأندلسيين، وذكر الزيادات فيهما... ونظراً لتزايد عدد الواردين على مدينة فاس، في عهد الأمير يحيى[١٤] بن محمد بن إدريس بن إدريس، «كان ممن قدم على المدينة من القيروان، محمد بن عبد الله الفهري القروي، والذي نزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه، فمات وترك بنتين وهما: فاطمة المدعوة بأم البنين، ومريم، وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب، ورغبتا في أن تصرفاه في وجوه البر، فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير في كل عدوة من فاس، لضيق الجامعيين القديمين المذكورين، فشرعت فاطمة في بناء جامع عدوة القرويين، ومريم في بناء جامع الأندلسيين». (المصدر نفسه، ص٤٥)

ولقد سلط الجزنائي الضوء على الزيادات التي طرأت على الجامعين، من قبل الدول التي تعاقبت على حكم المدينة. كما أتى على ذكر، مسجد الدراس، وهو معروف بحومة مصمودة من فاس قرب درب ابن بوبكر، ويقال إن قبلته أقوم قبلة بفاس. (المصدر نفسه،

---

[١٤] يحيى الإدريسي (٠٠٠ - ٢٥٠هـ = ٠٠٠ - ٨٦٤م) يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسني: ملك، من الأدارسة أصحاب مراكش. كانت عاصمته فاس. ولي بعد وفاة أخيه علي (سنة ٢٣٤هـ) بعهد منه. وحسنت سيرته، وكان محباً للعمران، بنى بفاس حمامات وفنادق. وأقبل أهلها على البناء في عهده... وفي أيامه بني جامع القرويين. توفي بفاس.)الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ١٦٣- ١٦٤).

ص ١١١). هذا وقد ذكر ابن أبي زرع في روايته، أن مساجد فاس قد بلغ عددها في أيام المنصور وولده الناصر سبعمئة واثنين وثمانين مسجداً. ومن جانب آخر أورد الجزنائي في روايته، أنه بلغ عدد المساجد في المدينة سبعمئة وخمسة وثمانين. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٧.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٤٤).

ولقد أشار الحسن الوزان، المشهور بليون الإفريقي، في كتابه الموسوم بوصف إفريقيا، على وصف دقيق لمدينة فاس، وما تحتويه من مبانٍ مشيدة، أقيمت لتخدم القاطنين فيها، وتوفر لهم ما يحتاجونه من متطلبات، ومن هذه المباني، الجوامع والمساجد، حيث ذكر أن فاس تضم ما يقارب السبعمائة جامع ومسجد، والمساجد صغيرة للصلاة، ويوجد من بين هذه الجوامع خمسون كبيرة حسنة البناء. كما جاء على ذكر جامع القرويين، ووصفه بأنه: جامع عظيم، وهو في غاية الكبر، وله واحد وثلاثون باباً كلها كبيرة عالية. (الوزان، ١٩٨٣م، ص٢٢٣-٢٢٤).

ومما لا شك فيه يعد جامع القرويين أشهر معلمة تاريخية بمدينة فاس، وباعتباره مركزاً علمياً، وقطباً تعليمياً، استقطب الكثير من العلماء، والمفكرين، وطلبة العلم، خصوصاً أنه أول جامعة إسلامية قائمة حتى اليوم، وحظي علماؤه باحترام وتقدير سلاطين المغرب، ولذلك أسهم الجامع في منح فاس مكانة علمية وثقافية لا يستهان بها؛ لاحتوائها على هذا الجامع. (أقصبي، ٢٠٢٢م، ص٥٦)

- **ثالثاً: المدارس:**

لقد جاء ذكر مدارس فاس في مصادر عديدة، ككتاب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، لابن أبي زرع، فقد أوردت روايته في أكثر من موضع، بعض المدارس التي تم بناؤها بفاس؛ ففي الخبر عن دولة يعقوب بن عبدالحق، الذي بنى المدارس في فاس، وأمر بانضمام الطلبة إليها لطلب العلم، وقراءة القرآن، وأجرى عليهم المرتبات، في كل شهر. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٢٩٨)

وفي عهد الأمير أبو سعيد، أمر ببناء مدرسة في فاس الجديد، وانضم إليها الطلبة؛ لتعلم وقراءة القرآن الكريم، ودَرَّسَ فيها الفقهاء، وأجريت لهم المرتبات، والأقوات في كل شهر. كما أمر ببناء المدرسة العظيمة بمحاذاة جامع القرويين، وعَيَّنَ فيها الفقهاء للتدريس، وإماماً ومؤذنين، وعُمّالاً ممن يقومون بالخدمة، وجعل للطلبة سكناً فيها، وأجرى على الجميع المرتبات والأقوات، وأوقف عليها بعض الأملاك، كما فعل في المدرسة التي بناها في فاس الجديد. واستن بسنته ابنه الأمير أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد

الحق[١٥]، فبنى مدرسة غربي جامع الأندلس بفاس، وعيّن بها الفقهاء، وأسكنها بالطلبة، وأجرى عليهم المرتبات والمُؤَن، وأوقف عليها الأملاك. ويلاحظ أن ابن أبي زرع لم يأتِ على ذكر أسماء المدارس التي وردت في كتابه القرطاس. (المصدر نفسه، ص ٤١١-٤١٢-٤١٣).

كما أورد الجزنائي في كتابه جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، خبر بعض مدارس فاس؛ كالمدرسة البوعنانية، التي تعد من أعظم المباني التي أنشأها المرينيون... ومدرسة الرخام، والتي يطلق عليها المدرسة المصباحية، بعدوة القرويين، أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني، ومدرسة الصهريج، وهي مجاورة لمدرسة السبعين، وهي على مقربة من جامع الأندلس بعدوة الأندلسيين، والمدرسة اليعقوبية، أو مدرسة الصفارين، وهي أولى المدارس التي أنشئت بفاس. الجزنائي، ١٩٩١م، ص١٠٢-١١١)

أما الحسن الوزان، فقد ذكر مدارس فاس، في كتابه وصف إفريقيا، فقد بلغ عددها إحدى عشرة مدرسة للطلاب، جيدة البناء، كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش... وأتى على ذكر المدرسة البوعنانية، التي أمر بتأسيسها السلطان أبي عنان المريني، فقد قام بوصفها وصفاً دقيقاً. (الوزان، ١٩٨٣م، ص ٢٢٥).

- **رابعاً: الفنادق:**

إن أول ذكر لبناء الفنادق والخانات، في كتاب القرطاس، كان في عهد دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي، فمنذ توليه أمر فاس، عرف باشتغاله ببناء الفنادق وتشييد الخانات، وغيرها من المرافق، كالمساجد والحمامات. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص١١١) وفي عهد يوسف بن تاشفين،[١٦]ودخوله مدينة فاس، وبعد أن أمر بتحصينها، وهدم الأسوار المحيطة بكل من العدوتين، وإعادتها سوراً واحداً، أمر بتشييد وإعمار المدينة، وببناء الفنادق فيها. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص١٤١) كما بنيت الفنادق المعدة للتجار، والمسافرين، والغرباء، والتي بلغ عددها نحو أربعمئة وسبعة وستين فندقاً. (المصدر نفسه، ص٤٨)

---

[١٥]المنصور المريني: (٦٩٧هـ- ٧٥٢هـ = ١٢٩٧م - ١٣٥١م) علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، أبو الحسن، المنصور بالله: من كبار بني مرين، ملوك المغرب... بويع بفاس بعد وفاة أبيه (سنة ٧٣١ هـ) بعهد منه... أطنب لسان الدين بن الخطيب في الثناء عليه في منظومته «رقم الحلل» وقال السلاوي فيه: أفخم ملوك بني مرين دولة، وأضخمهم ملكاً، وأكثرهم آثاراً بالمغربين والأندلس. (لزركلي، ٢٠٠٢م، ص٣١١)

[١٦]يوسف بن تاشفين:) ٤١٠ هـ-٥٠٠هـ = ١٠١٩م-١١٠٦م) ابن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري، أبو يعقوب، أمير المسلمين، وملك الملثمين: سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش، وأول من دعي بأمير المسلمين. ولد في صحراء المغرب. وولاه ابن عمه أبو بكر بن عمر اللمتوني إمارة البربر، وبايعه أشياخ المرابطين. وجال جولة في المغرب بجيش كبير، فقوي أمره، واستولى على مدينة فاس، وغزا الأندلس. (الزركلي، ٢٠٠٢م، ص ٢٢٢)

أما الجزنائي فقد أشار إلى عدد الفنادق المقامة في فاس، حيث بلغ عددها أربعمائة وتسعة وستين فندقاً.. منها فندق ابن حيون؛ وهو فندق شهير بفاس ملاصق لدرب ابن حيون من حومة بوطويل بعدوة القرويين، والفندق الكبير الشهير بسوق الشماعين، والذي أوقفه المولى أبي يعقوب. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٤٤-٧٩-١١٤).

وبالرجوع إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، فإنه يرصد الفنادق المقامة في مدينة فاس، ويصف بناءها، ومرافقها، حيث يقول: «يوجد بفاس مائتي فندق، بنيانها في غاية الإتقان، بعضها فسيح جداً، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير، وتتألف كلها من ثلاث طبقات، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك. وفي كل فندق صهريج وميضأة...»، (الوزان، ١٩٨٣م، ص ٢٣١)، ويُلاحَظ أنه لم يأتِ على ذكر أسماء هذه الفنادق ومواقعها، إنما اكتفى بذكر عددها، وتقديم وصف عام لها، كما أنه أشار إلى العاملين فيها، وصفة المقيمين فيها. (المصدر نفسه، ص ٢٣١-٢٣٢).

- **خامساً: الأسواق:**

ولقد اتفقت روايتي ابن أبي زرع، و الجزنائي، في ذكر الأسواق والقيساريات وأنواعها، ووظائفها، واختلفت في عدد كل منها، فقد بلغ عدد الحوانيت في رواية ابن أبي زرع تسعة آلاف واثنين وثمانين حانوتاً، وفي رواية الجزنائي بلغ عددها تسعة آلاف ومائتين وثمانين، واتفقا في عدد القيساريات، فعددها قيساريات، إحداهما بعدوة القرويين، والثانية بعدوة الأندلس. وانفرد ابن أبي زرع في ذكر الأسواق الصغيرة التي يطلق عليها الترابيع – لاتخاذ بنائها شكلاً مربعاً، يعمل به بعض الصناع الخياطين ونحوهم – واختلفا في عدد المطرزة المهيئة لصناعة الحياكة، فقد بلغ عددها عند ابن أبي زرع، ثلاثة آلاف وأربعة وستين موضعاً. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٣٨-٤٨).

أما الجزنائي فيذكر أن عددها ثلاثة آلاف وأربعة وتسعون، واتفقا في عدد معامل الصابون، الذي بلغ عددها سبعة وأربعين معملاً، وعدد دور الدباغة، بلغ ستاً وثمانين داراً، ودور الصباغ مائة وست عشرة داراً، واثنتي عشرة داراً لسك النحاس، وفي رواية الجزنائي أورد لفظ سبك بدل سك، وأضاف الحديد مع النحاس، واتفق مع ابن أبي زرع في عددها البالغ اثنتا عشرة. واتفقا على عدد أفران الخبز، الذي يبلغ عددها ألفاً ومائة وسبعين فرناً، وزاد الجزنائي، كوش الخبز، وعددها مائة وخمس وثلاثون، واتفقا في معامل الزجاج التي تبلغ أحد عشر معملاً، وبلغت دور الفخار في رواية ابن أبي زرع، والموجودة خارج المدينة، نحو مائة وثمان وثمانين داراً، وفي رواية الجزنائي، فقد بلغ عدد الأفران بخارج المدينة، ثمانمائة وثمانية وثمانين فرناً. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٨.الجزنائي، ١٩٩١م، ص٤٤).

ولقد أقيمت على ضفتي الوادي الكبير الذي يشق المدينة إلى شطرين، حوانيت للصباغين، والخياطين، والقصابين، والسفاحين[١٧]، والكوش، والأفران المعدة لطبخ الغزل، ودار الدباغين، والصباغين، والحرف التي تحتاج إلى الماء، وفي أعلى ذلك كله أطرزة الحياكة. (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٩). وزاد الجزنائي في روايته حوانيت الخناقين، والمواضع المعدة للطبخ الغزل، و الفوالين. (الجزنائي، ١٩٩١م، ص٤٤)

كما ذكر الجزنائي، تربيعة العراقيين، وهو سوق المركبات[١٨]الحالي من قيسارية فاس... وسوق الشماعين، كان في الأصل سوقاً لبيع الشمع، ثم انتقل إلى باب المولى إدريس، وأصبح سوق الشماعين خاصاً ببيع الفواكه المجففة، كالجوز واللوز والتمر والزبيب والتين، وفي السنوات الأخيرة بدأت حيوانيته تتحول إلى حوانيت لبيع الثياب بالجملة والتفصيل، ويقع هذا السوق بين جامع القرويين والضريح الإدريسي. (المصدر نفسه، ص١٠٩-١١٦)

جدول (1) لأسواق وحوانيت مدينة فاس كما وردت في روايتي ابن أبي زرع والجزنائي.

رواية ابن أبي زرع		رواية الجزنائي	
الأسواق	عددها	الأسواق	عددها
الحوانيت	٩٠٨٢ حانوتاً	الحوانيت	٩٢٨٠ حانوتاً
القيساريات	قيساريات، واحدة في كل عدوة	القيساريات	قيساريتان، واحدة في كل عدوة
الأطرزة	**3064**	الأطرزة	3094
معامل الصابون	**47**معملاً	معامل الصابون	٤٧ معملاً
دور الدباغة	٨٦ داراً	دور الدباغة	86
دور الصباغ	١١٦ داراً	دور الصباغ	١١٦ داراً
دور سك النحاس	١٢ داراً	دور سبك الحديد والنحاس	١٢ داراً
الأفران	**1170**فرناً	أفران الخبز	١١٧٠ فرناً
معامل الزجاج	**11**معملاً	معامل الزجاج	١١ معملاً
دور الفخار	١٨٨ داراً	دور الفخارة	٨٨٨ داراً
ـــــ	ـــــ	كوش الخبز	135
ـــــ	ـــــ	أحجار عمل الكاغد	٤٠٠ حجر

أما رواية الحسن الوزان، في كتابه وصف إفريقيا، فقد ذكر الطواحين المنتشرة في المدينة، والتي يبلغ عددها أربعمائة طاحونة، والأرجاء البالغ عددها ألف رحى، وفسر أن كل طاحونة تتكون من قاعة كبيرة ذات أعمدة تضم أربع أو خمس أو ست أرحاء... ثم تحدث

[١٧]السفاجين: هو سوق مخصص لبيع الإسفنج.) عبد الرازق، ٢٠١٣م، ص٧٣)

[١٨] المركطان: أو المرقطان، وهو ثوبٌ مُرقَّط ملون. (https://www.hespress.com/%D8%B3%D9%88%D9%82-)

عن نقابات الحرفيين بفاس، واجَّلِها يوجد حول جامع القرويين؛ فيشغل العدول نحو ثمانين دكاناً... وثلاثين دكاناً للكتبيين، ومائة وخمسين دكاناً لبائعي الأحذية، وخمسين دكاناً للخرازين الذين يصنعون أحذية الأطفال... وباعة أواني النحاس الأصفر، وخمسين دكاناً لبائعي الفواكه، ودكاكين للشماعين... وعشرين دكاناً لبائعي الأزهار، الذين يبيعون أيضاً الليمون والحامض... وثلاثين دكاناً لبائعي القطن... ومائة دكان لبيع الأواني الخزفية، وثمانين دكاناً لبائعي الشكم واللجم والأحزمة والسروج و الركابات. (الوزان، ١٩٨٣م، ص٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥).

وتقوم حول الساحة دكاكين تباع فيها الشعيرية... وسوق الخضر البالغ عدد دكاكينه نحو أربعين دكاناً، وسوق الدخان المخصص لبيع الفطائر المقلية في الزيت (الإسفنج)، وخمسة عشر دكاناً متخصصاً لبيع اللحم المشوي...(المصدر نفسه، ص ٢٣٦) وأربعين دكاناً للجزارين، ومائة دكان في سوق الأقمشة الصوفية، وأربعين دكاناً لصانعي أقفاص الدجاج، ودكاكين قليلة للصابون السائل، و عشرة دكاكين لبيع التبن، وأربعة عشر دكاناً لصانعي الدلاء الجلدية، وثلاثين دكاناً لصانعي الظروف التي يخزن فيها الدقيق والقمح، ومائة وخمسين دكاناً للإسكافيين وبعض الخرازين، وعشرين دكاناً للذين يغسلون الثياب، لكن دكاكينهم المتفرقة في كل الأزقة وبعض الأسواق الصغيرة تزيد على المائتين وأربعين دكاناً للحرفين الذين يزخرفون الركابات و المهاميز واللجم، ومائة دكان لصانعي جلود السروج. (المصدر نفسه، ص ٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠).

ثم أفرد موضوعاً خاصاً بسوق التجار، وما يتضمنه من أحياء، وأبواب، ونوع البضائع المبيعة في الأحياء؛ كالخرازين الذين يصنعون أحذية للأعيان، والأحياء المخصصة لتجار الأقمشة الحريرية، وأحياء للخياطين... وغيرها. كما سلط الحسن الوزان، الضوء على القيساريات، والأصل الاشتقاقي لها، ومن ثم أشار إلى الأسواق المقامة إلى جانبها، والبالغ عددها نحو مائة وخمسين دكاناً، متخصصة بالعطارة والطب، وبعض المنتجات الحرفية. (المصدر نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١-٢٤٢)

- **سادساً: الحمامات:**

وبالحديث عن الحمامات الوارد ذكرها في كتاب القرطاس، فهي المبنية بعدوة القرويين، خلال حكم زناتة، كحمام قرقف، وحمام الأمين، وحمام الرشاشة، وحمام الرياض. أما الحمامات المبنية بعدوة الأندلس فهي: حمام جرواوة، وحمام الكدان، وحمام الشيخان، وحمام الجزيرة. وتذكر رواية الجزنائي عدد الحمامات قد بلغ نحو ثلاثة وتسعين حماماً، (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٧.الجزنائي، ١٩٩١م، ص ٤٤)

وبالرجوع إلى رواية الحسن الوزان فيما يخص عدد الحمامات الموجودة بفاس، فقد بلغت مائة حمام جيدة البناء، حسنة المنظر، على هيئة واحدة؛ أي أن في كل حمام ثلاث حجرات، بعضها صغير، وبعضها الآخر كبير... ويستطرد الوزان في وصف الحمامات، وصفتها، والعادات المصاحبة، لارتياد الحمامات، من قبل أهل فاس. (الوزان، ١٩٨٣م، ص٢٢٩-٢٣٠). «ولقد بلغت مدينة فاس أيام المرابطين، وأيام الموحدين من بعدهم، من العمارة... ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب، وانتهى عدد السقايا وديار الوضوء مئة واثنين وعشرين موضعاً، منها اثنان وأربعون موضعاً في ديار الوضوء، وباقيها سقايات، منها بمياه العيون، ومنها بمياه الأنهار». (ابن أبي زرع، ١٩٧٢م، ص ٤٧)

وخلاصة القول في هذا المبحث يتبين الآتي:

١. بدء الحركة العمرانية في فاس منذ السنوات الأولى لنشأتها، واستمرار حركة الإنشاء والتطوير، على الرغم من مرورها بفترات كساد أدت إلى توقفها عن التحديث.
٢. وجود اختلاف بين المصادر التي تناولت أسماء أبواب عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين وعددها، على حدٍ سواء، واتفاقها في ذكر بعضها، وكذا الحال أيضاً في ذكر أسواق المدينة وقيسارياتها.
٣. تنوع المكونات العمرانية لمدينة فاس، دليل على ازدهارها، والمكانة التي تتبوؤها، باعتبارها مركزاً علمياً واقتصادياً، وحضارياً.

٢. المصادر الأجنبية المُعرَّبة الواصفة للإرث الثقافي لمدينة فاس التاريخية:

تمهيد:

لقد أولى المستشرقون اهتماماً كبيراً بمظاهر الإرث الثقافي في مدينة فاس، من خلال كتاباتهم، ولإدراكهم أن هذه المدينة تعد مصدراً غنياً للتراث الثقافي، الأمر الذي جعلهم يتحمسون لتوثيقها ودراستها، وتقديم أعمال ورسومات قَيِّمَة لمبانيها، وبكل ما يتعلق بتراثها الثقافي، فأسهمت في تيسير عملية التبادل الثقافي بين الغرب والعالم العربي، ما أدى إلى توسيع نطاق تقدير التراث الثقافي الذي تمتلكه مدينة فاس. ولا يخفى أن هذه الكتابات قد أسهمت بشكل من الأشكال في عملية بناء وترميم المباني الأصيلة في المدينة القديمة على وجه الخصوص. كما أن هذه المصادر كانت دافعاً قوياً للفت انتباه الحركة الاستشراقية، والقوى الأوروبية الإمبريالية، للمنطقة على وجه العموم، والمغرب الأقصى على وجه الخصوص، إبان القرن التاسع عشر.

ولقد تطرقت المصادر الأجنبية المُعرَّبة، إلى مدينة فاس وتاريخ نشأتها، وأوردت وصفاً لها، فها هو ذا مارمول كربخال، يذكر في كتابه الموسوم بـ«إفريقيا»، وصفاً عن فاس، حيث يقول عنها: »فاس أكبر وأجمل مدينة بإفريقيا كلها، فيها مدارس الملة المحمدية، وتنقسم إلى

ثلاثة أقسام، أو بالأحرى هي ثلاث مدن جمعت في واحدة، وتحمل الاسم نفسه. وقد أسست في تواريخ مختلفة». (كربخال، ١٩٨٩م، ص١٤٤)

كما يصفها دييغو دي طوريس في كتابه «تاريخ الشرفاء»: «هناك مدينتان تحملان اسم فاس، يسمي المغاربة إحداهما فاس البالي، والأخرى فاس الجديد... وتوجد بفاس القديم أكثر من ثلاثمئة وسبعين طاحونة... معظم الأزقة واسعة ومستقيمة ومنسقة أحسن تنسيق، ولو أن عدداً منها لا منفذ منه، الدور مبنية بالحجر المنحوت والآجر، علوها ثلاث طبقات، وهي متينة، رائقة، فسيحة في الداخل، تحتوي على غرف فائقة، مع أفنية وبساتين البرتقال وجميع أصناف الفواكه الحامضة والحلوة وسقايات». (طوريس، د.ت، ص١٤٢- ١٤٣)

ومن أهم المصادر التي سلطت الضوء على مدينة فاس، والتي سيتم استعراضها، كتاب «فاس قبل الحماية» لروجيه لوطرنو (Roger Le Tourneau)، وكتاب «إفريقيا» لمارمول كربخال Luis del Mármol Carvajal))، وكتاب «نخب تأريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى» ليفي بروفنسال (Évariste Lévi-Provençal)، وكتاب «تاريخ الشرفاء» لدييغو دي طوريس (Diego de Torres). وستتم الإشارة إلى أهم مظاهر الإرث الثقافي في المدينة، وتحديداً التراث المادي، كما تمت الإشارة إليه في المصادر العربية.

- **أولاً: الأسوار والأبواب:**

لقد ذُكِّرَتْ أسوار وبوابات مدينة فاس القديمة في العديد من المصادر الأجنبية المُعرَّبة، فقد كانت مركزاً ثقافياً وتجارياً مهماً في المغرب الأقصى، وكانت أسوارها وبواباتها رمزاً لقوة المدينة وازدهارها، إلا أن هذه المصادر لم تتناول الأسوار والأبواب بشيء من التفصيل، كما تناولته المصادر العربية، إنما أشارت إليها في سياق الحديث عن وصف المدينة، فها هو ذا دييغو دي طوريس، يورد في كتاب تاريخ الشرفاء، أن أسوار فاس مبنية بالحجر، والذي أمر ببنائها هو الإمام إدريس... ولا تبعد فاس الجديد عن أسوار فاس البالي، إلا بقدر رمية بندقية، كما أن فاس الجديد تحيط بها أسوار عالية محصنة ببروج... ويذكر دييغو أن من الأسباب التي دعت إلى تشييد فاس الجديد بالقرب من فاس البالي، إلا لتكون لها بمثابة القلعة، ولأنها تتوافر على برج في طرف جدار بين استحكامين، يبرز من السور ويتحكم فيها.(طوريس، د.ت، ص ١٤٤- ١٤٦- ١٤٧)

أما روجيه لوطرنو، فقد ذكر أسوار فاس في كتابه «فاس قبل الحماية»، حينما أورد رواية الجزنائي – التي تمت الإشارة إليها في المصادر العربية الواصفة للإرث الثقافي للمدينة – عن الزيادات التي أضافها الأمراء والملوك... منهم دوناس بن حمامة بن عطية بن زيري، الذي أدار الأسوار على جميع أرباض المدينة، وما قام به الخليفة الموحدي الرابع، محمد الناصر، بإحاطة مدينة فاس بأسوار متينة بقي بعضها قائماً. وذكره لتأسيس فاس

الجديد، على يد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب، وبعد انتهائه من تشييدها، أدار السور حولها، وفي موضع آخر يورد أخباراً عن مظاهر فاس الجديد المعمارية، والسور المزدوج الذي يفصل بينه درب واسع للعسس، وما تتميز به هذه الأسوار ذات الشرفات التي كانت تضاف إليها مسافة لأخرى أبراج متينة مربعة ذات شرفات كذلك. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٨٢- ٨٧- ١٠٣)

وللأحياء الإسلامية بفاس الجديد مظهر عسكري، إذ تحيط بها أسوار محصنة بأبراج، ومزدوجة على طول خطها الشمالي الشرقي، والشرقي والجنوبي... «وقد كان السور الشمالي يستند إلى جدار مشور باب الدكاكين ثم يسير ليلتحق بباب محروق؛ والسور الجنوبي ينطلق من برج الشيخ أحمد، فيسير مخترقاً البساتين إلى باب الحديد». (المصدر نفسه، ص١٥٦- ١٦٢) ولقد اكتفى مارمول كربخال في كتابه الموسوم بـ«إفريقيا» بذكر موقع فاس البالي، التي تحيط بها أسوار قديمة، محصنة ببروج من صنع جيد. (كربخال،١٩٨٩م، ص١٤٥)

أما الأبواب، فقد ورد ذكرها في كتاب فاس قبل الحماية لروجيه لوطورنو، فقد ذكر خبر بناء الخليفة الموحدي محمد الناصر، أسوار مدينة فاس، وجعل لها أبواباً بعضها فخم عظيم، أشهرها الباب الذي كان يعرف قبل بباب الشريعة، إلا أنه بمجرد الانتهاء من بنائه، أطلق عليه الناس باب المحروق، كما تتوافر فاس الجديد على باب أطلق عليه باب السبع، ويسمى الآن باب الدكاكين، وقد ذاع صيت هذا الباب من خلال الصور، وطوابع البريد، ويذكر لو ترنو أن من هذا الباب كان الدخول إلى المدينة الإمبريالية، عندما يصل القادم إليها من الخارج. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص ٨٧- ١٠٣- ١٠٤)

ويورد أبواباً أخرى، كباب قُبَيْبات السمن، وبابين آخرين لمن أراد الدخول إلى فاس الجديد، أحدهما من الشمال، وهو عبارة عن مجرد ثلمة في السور، والآخر في الجنوب، أكثر تحصيناً وأهمية، وهو باب السمارين... وكان هناك فضاء ضيق يربط فاس الجديد بالمدينة، ينطلق من باب الدكاكين لينتهي عند باب بوجلود، بعد قطع مسافة تبلغ ٧٥٠ متراً، وكان من باب الدكاكين إلى باب الشمس ممر بين صفين من الأسوار وقصبة صغيرة يحرسها بعض الجند. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص١٤٥- ١٥٤-١٦٣)

ويسهب لوطرنو في الحديث عن الأبواب الموجودة في فاس، فيذكر باب محروق قائلاً: «وصل إذن مسافري إلى بوجلود، أمام باب القصبة، مشاهداً أمامه جداراً يسد المدينة القديمة، وقد عُوِّض عام ١٩١٣م، بباب ذي ثلاث فتحات وزخرف متعدد الألوان سمي بوجلود، أو (باب الفرنسيين)، وإلى جانبه الأيسر باب عادي على شكل حربة، هو باب بوجلود القديم، الذي كان يشكل فيما سبق المنفذ الوحيد للدخول إلى المدينة القديمة إذا جيء إليها من فاس الجديد... لكن إذا صعدنا إلى جهة اليسار، فإننا نحاذي أسوار قصبة فيلالة

ونصل إلى باب حصين يدعى باب محروق، باب الشريعة سابقاً». (المصدر نفسه، ص١٦٨). وفي حديثه عن عدوة القرويين يورد الأبواب التي تم إنشاؤها في أسوارها، وهي: باب عجيسة شمالاً، و باب محروق، وباب بوجلود غرباً، وباب الحديد في الجنوب الغربي، وباب جديد جنوباً... أما عدوة الأندلسيين فقد ذكر بعض أبوابها، كباب فتوح في الجنوب الشرقي، والذي يفضي إلى الطرق الآتية من تازا، والمغرب الشرقي، وصفرو، وجبل البربر، وباب سيدي بوجيدة في الشمال المفضي إلى بادية وادي فاس الغنية. (المصدر نفسه، ص٢٠٥).

ولقد ذكر مارمول كربخال، في كتابه «إفريقيا» أبواب فاس القديمة التي تدعى «فاس البالي»، حيث ذكر أن المدينة تمتلك سبعة أبواب، الأول يسمى باب الغدر، والثاني باب المحروق، والثالث باب الجيسة، والرابع باب الحديد، والخامس باب الرب، والسادس باب فتوح، والسابع باب المرحومين. ثم يأتي على ذكر أبواب المدينة الجديدة، التي يطلق عليها «فاس الجديد»، حيث إن لها بابين رئيسين، أحدهما يؤدي إلى المدينة القديمة، والآخر يوجد فيه السقيفة وحرس الملك، وهناك باب ثالث في الداخل أكثر، يسير بين حواجز السورين. (كربخال، ١٩٨٩م، ص ١٤٥– ١٥٨)

- **ثانياً: المساجد والجوامع:**

يعد الجامع في تخطيط المدينة الإسلامية أول ما يبنى فيها، فهو مركزها الحضري، وتبنى حوله بقية المباني، ولمدينة فاس جوامع كثيرة، أهمها جامع القرويين، بعدوة القرويين، وجامع الأندلس بعدوة الأندلسيين، والجامع الكبير بفاس الجديد، هذا وقد ذكر دييغو في كتابه «تاريخ الشرفاء» أحد هذه المساجد، لكنه لم يسمه، بل أتى على ذكره على وجه العموم، لكن يظهر من خلال قوله أن الجامع المقصود بالوصف هو جامع القرويين، حيث يقول: «يوجد في المدينة جامع في غاية العظمة والشهرة والزخرف.«.. (طوريس، د.ت، ص١٤٣). ويورد لوطرنو، خبر تأسيس جامعي القرويين، وجامع الأندلس، في عهد يحيى حفيد إدريس الثاني، عام ٢٩٥هـ/ ٨٥٩م، وذلك من قبل فاطمة، ومريم، ابنتا محمد الفهري، مع ذكره لجامع الأشياخ، وجامع الأشراف، اللذين يعتبران أول جامعين في كلتا العدوتين. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٧٨-٧٩)

ولقد أسست في عهد المرينيين، مدينة فاس الجديد من قبل السلطان أبي يوسف يعقوب المريني؛ في عام ٦٧٤ هـ /١٢٧٦ م، وبنى فيها الجامع الكبير، والمسجد المعروف بجامع الحمراء، الواقع بجانب المحجة الكبرى لفاس الجديد، والناظر إلى تصميمه، سيلاحظ الشبه بينه وبين تصميم الجامع الكبير، ويحتمل أن يرجع تاريخ بنائه إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر، أو أوائل القرن الرابع عشر... كما شيد في منتصف القرن الرابع عشر،

عام ٧٥٩ هـ/١٤٥٧ م، الجامع الذي أطلق عليه «للّا جامع الزهر». (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٩٦-٩٨-٩٩)

كما شهدت مدينة فاس ازدهاراً في مجالها الحضري خلال العهد العلوي، وتحديداً في فترة حكم المولى سليمان؛ فقد أبدى عناية كبرى بعاصمته، وشيد مساجد عدة، منها جامع الرصيف، الذي لا يخلو من عظمة ولا من جمال، ولو أنه لا يعد مسجداً عتيقاً، فقد يرجع تاريخ تأسيسه إلى عهد المولى سليمان... وهناك جامعات يثيران الانتباه، الأول: جامع الشرابليين، يتميز بصومعته الرشيقة المتعددة الألوان، والتي تعود إلى العهد المريني. والثاني: جامع عجيسة، الذي تطل صومعته الواقعة بجانب الباب الذي يحمل الاسم نفسه، على كل الجزء الشمالي الشرقي لعدوة القرويين. (المصدر نفسه، ص١٣٢- ١٩٧)

أما مارمول كربخال، فقد أورد عدد المساجد التي تضمها مدينة فاس، التي يبلغ عددها نحو خمسين جامعاً كبيراً، وسلط الضوء على جامع القرويين، الذي وصفه بأبهى وأعظم جامع في إفريقيا كلها، كما قدم وصفاً لأهم مكوناته المعمارية... ثم انتقل إلى ذكر جامع آخر، ووصفه بأنه مسجد كبير يسمى جامع الأندلس، أمامه ساحة مبلطة بالآجر. (كربخال، ١٩٨٩م، ص ١٤٦-١٥٥). كذلك أورد ليفي بروفنسال في كتابه «نخب تأريخية» خبر تأسيس جامعي القرويين والأندلس، وما يحتوي عليه جامع القرويين من عناصر معمارية... كما أورد خبر تأسيس الجامع الكبير، في فاس الجديد، وما يتضمنه من عناصر معمارية. (بروفنسال،١٩٤٨م، ص٢٢-٢٣-٥٠)

- **ثالثاً: المدارس:**

لقد أفرد ليفي بروفنسال، خبراً خاصاً بالمدارس التي شيدت بمدينة فاس، خصوصاً في عهد الدولة المرينية، التي أولت اهتماماً كبيراً بالمدارس. فبعد أن كان التعليم يلقن في الجوامع والمساجد، كجامعي القرويين والأندلس، قرر المرينيون إحداث مؤسسات خاصة يجد فيها طلبة البوادي والقرى، السكن والطعام، والتعليم...وأول مدرسة شيدت هي مدرسة الصفارين، الواقعة بين جامع القرويين، والوادي، وسط دكاكين الصفارين... وفي عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، أمر السلطان أبو سعيد عثمان بتشييد مدرسة ثانية بجوار الجامع الكبير بفاس الجديد، وأطلق عليها اسم مدرسة فاس الجديد أو مدرسة دار المخزن. وبعد عام من تأسيس هذه المدرسة، شرع أبو الحسن بن أبي سعيد وولي عهده، في بناء مدرسة ثالثة بالقرب من جامع الأندلس... تتألف من بنايتين تحيط كل واحدة منهما بصحن، أطلق عليهما أولاً اسم المدرسة الكبرى، والمدرسة الصغرى، ثم سميت الأولى مدرسة الصهريج... وسميت الأخرى مدرسة السبعيّين نسبة إلى القراءات السبع التي كانت تدرس بها. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص١٠٤-١٠٥-١٠٦)

كما عزم السلطان المريني أبو سعيد عثمان، على بناء مدرسة رابعة، بمحاذاة جامع القرويين، في مدخل سوق العطارين، أطلق عليها مدرسة العطارين، وتم بناؤها سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، أي بعد عامين من تأسيس مدرسة الصهريج، ومدرسة السبعيين. وبعد فترة من التوقف، استؤنف بناء المدارس، من قبل السلطان أبو الحسن، فأمر ببناء مدرسة أيضاً بالقرب من جامع القرويين، فاستورد من ألمرية، بيلة من الرخام الأبيض نقلت بحراً إلى مصب نهر سبو، ثم جُرَّت عبر النهر إلى أن وصلت إلى ملتقاه مع وادي فاس... فأطلق عليها المدرسة المصباحية، أو مدرسة الرخام. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص١٠٦)

ولقد اختتم بناء المدارس في العهد المريني، على يد السلطان أبو عنان، حيث أمر بتشييد مدرسة تحمل اسمه، وهي المدرسة البوعنانية، والتي أقيمت بحي الطالعة... كما أورد ليفي بروفنسال، خبراً عن مدرسة أخرى، من المحتمل أن تكون من العهد المريني، وهي مدرسة اللّبادين. (المصدر نفسه، ص١٠٧)

وفي العهد العلوي أقيمت مدرسة جديدة بجوار جامع القرويين، وهي مدرسة الشراطين، أو المدرسة الرشيدية؛ نسبة إلى مؤسسها... ومدرسة باب عجيسة، قرب الباب الذي يحمل الاسم نفسه... والتي أسسها السلطان محمد بن عبدالله، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. (المصدر نفسه، ص ١٢٦-١٣٦-١٩٩). أما مارمول فقد أتى على ذكر مدارس فاس بشكل عام، حيث لم يورد أسماءها، ولا في أي عهد تم الاهتمام بتأسيسها، وسلط الضوء على تصاميمها البديعة، ووصفها بأنها من أجمل بنايات إفريقيا كلها، من حيث أفنيتها الكبيرة، و أروقتها وغرفها، وأورد عدد أبنيتها البالغ نحو مائتي مدرسة. (كربخال، ١٩٨٩م، ص ١٤٧).

- **رابعاً: الفنادق:**

يورد ليفي بروفنسال، موضوعاً خاصاً بالفنادق الموجودة في فاس، وتحديداً فندقين اثنين، هما: فندق التطاونيين، الذي أُسس في العهد المريني، أي خلال القرن الرابع عشر، والواقع في الدرب الطويل باتجاه الجدار الشرقي لجامع القرويين، ويتميز بالسقف الخشبي لقبة المدخل، والذي تجمله نقوش ممشوقة جداً. والفندق الآخر هو فندق النجارين الذي بناه الأمين عديّل في القرن الثامن عشر، حيث يشكل بابه العظيم، مع السقاية الأنيقة التي بجانبه، إحدى المجموعات المعمارية الشهيرة بفاس. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص١٩٩)، كما يذكر أن فاس تضم بعض الفنادق، كفندق العطار، وبضعة فنادق مجتمعة بين جامع الأشياخ، والصفاح... وفندق اليهودي. المصدر نفسه، ص ٢١١-٢٢٠). ويطلق اسم الفندق، على نوعين اثنين من العمارات، يتشابهان في البناء، ويختلفان في الوظيفة:

١. النوع الأول: يستعمل لإيواء الناس العابرين، والماشية، وهو شبيه بخانات الشرق.

٢. النوع الثاني: يستعمل لإيداع البضائع، ولمختلف المنتجات الصناعية والتجارية.

وقد كانت الفنادق تتمركز حول أبواب المدينة التي كان يتردد عليها الناس كثيراً؛ كباب عجيسة، وباب فتوح – هكذا كتب فتوح من دون «ال» التعريف – وباب بوجلود، أو توجد في وسط المدينة؛ كفندق الشمَّاعين (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٢٨٢)

والجدير بالذكر أن بعض الفنادق، كان يقام فيها بعض المزادات الخاصة ببيع المنتجات المهمة للصناعة الفاسية، منها: فندق السبيطريين، الذي يطلق عليه أيضاً فندق الجلد، (المصدر نفسه، ص ٤٤٤-٤٤٥). وفندق الزبيب، وفندق الرحيبة، وفندق الفخار، وفندق الغاسول، وغيرها. (المصدر نفسه، ص ٤٤٤-٤٤٥-٤٤٧-٥٥٨) أما مارمول فقد ذكر فنادق فاس، وعددها الذي يبلغ مائتي فندق، ووصفها بأنها كبيرة حسنة البناء، تضم العديد من الغرف بأعلاها وأسفلها، ويوجد أهمها قرب الجامع الكبير بفاس الجديد. (كربخال، ١٩٨٩م، ص ١٤٧).

- **خامساً: الأسواق:**

لقد أسهبت المصادر الأجنبية في ذكر أسواق مدينة فاس، منها كتاب «فاس قبل الحماية»، حيث أورد لوترنو الأسواق الموجودة في فاس، وقسمها إلى أصناف عدة، بحسب ما يتعلق الأمر بأسواق الأحياء، التي يجتمع فيها التجار من جميع الأصناف، أو بأسواق متخصصة؛ كأسواق الحبوب، والزيت، والمواشي، والقنَّب المغزول... كما يوجد سوق العطارين، والجزارين، والصفارين، والمشاطين. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص١١٤- ١٩٠-١٩١)

كما أشار إلى أسواق أخرى، كسوق السبّاط، الذي يوجد في زقاق السوق، حيث توجد دكاكين بائعي الأحذية... وتنتشر أسواق الأقمشة المنسوجة بفاس، وهي: سوق التلّيس أو القشاشبين ، وسوق الحائك، التي تعنى بثياب النساء، وثياب محلية الصنع، لجلاليب الرجال، وسوق السلهام، الذي تباع فيه البرانس والمعاطف الرقيقة، وسوق البالي... وسوق الصفّاح، وسوق الحناء، الذي تباع فيه، كل ما يتعلق بالتجميل؛ كالحناء، والكحل والغاسول...وسوق الصفارين، الذي يباع فيه النحاس الجديد والمستعمل، وسوق النجارين، تباع فيه أوانٍ خشبية. (المصدر نفسه، ص ٤٤٥-٤٤٦-٤٤٨).

ثم فصَّل لوطرنو في أنواع الأسواق، وأهمها: أسواق الحبوب، وأسواق المواد الدهنية، والفواكه الجافة، وسوق الفواكه الطرية والخضر، وسوق السمك، وسوق الملح، وسوق خشب البناء، وسوق الفحم الخشبي. (المصدر نفسه، ص ٥٥٠-٥٥٦-٥٥٧-٥٥٨). ويورد مارمول أيضاً أسواق فاس، الذي يبلغ عددها في زقاق العطارين، نحو مائة وسبعين دكاناً في كلا الجانبين، يتضمن دكاكين عدة للعشابين...وبالقرب من الجامع الكبير بفاس الجديد،

يوجد ثلاثون دكاناً للكتبيين، وما يزيد على مائتي إسكافي، وأربعون دكاناً للبزازين والشماعين، ودكاكين لباقات الزهر عدة ، كما يباع فيها الليمون الحلو والحامض، ويبدو أن مارمول قد نقل عن الحسن الوزان، من كتابه «وصف إفريقيا» وصفه أسواق مدينة فاس. (كربخال، ١٩٨٩م، ص١٥٠)

ولقد سلط لوطرنو، الضوء أيضاً على القيصرية، وبَيَّن ماهيتها، وذكر أنها عبارة عن سوق للأشياء المستوردة القيمة، ولأجود منتجات الصناعة المحلية، تصلح للمعاملات الفردية، والمعاملات الجماعية، من خلال البيع بالمزاد، الذي يقام بشكل يومي... وتحتوي القيصرية على مختلف الأسواق؛ كسوق الحايك، سوق العطارين، وسوق عين علّو، وسوق باب مولاي إدريس، وغيرها. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٥٤٩)

أما مارمول فيذكر القيصرية، في كتابه «إفريقيا»، حيث يوجد في وسط المدينة مكان مسور يدعى القيصرية، وتحتوي على العديد من الدكاكين، لها اثنا عشر باباً كبيراً، بسلاسل غليظة من الحديد تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكباً، وتضم خمسة عشر زقاقاً للدكاكين... وما يربو على مائة دكان للتجار النسيج والحرير... ودكاكين عدة لأقمشة رقيقة من الصوف. (كربخال، ١٩٨٩م، ص١٤٨-١٤٩)

- **سادساً: الحمامات:**

تعد الحمامات، جزءاً مهماً لإرث فاس الثقافي، باعتبارها أحد مظاهر الإرث الثقافي، والذي سلطت عليه الضوء المصادر الأجنبية الواصفة هذا الإرث، فقد ذكر كتاب «فاس قبل الحماية» أن الحمامات كانت مرتادوها كثراً، ويعود السبب في ذلك، لقلة الدور التي كانت تحتوي على حمام خصوصي، كما أنه بلغ عدد الحمامات العمومية بفاس، نحو واحد وعشرين حماماً، قبل الحماية...ولقد كان لكل حي حمامه الخاص به، باستثناء بعض الأحياء؛ كحي الفخارين، ووادي الزيتون، نظراً لقلة الساكنين، ومنطقة العيون الأرستقراطية، التي تكثر فيها الحمامات الخاصة. وفي مقابل ذلك، تحتوي بعض الأحياء المكتظة بالسكان على أكثر من حمام؛ كحي الطالعة، ورأس الجنان، والكدّان. (لوطرنو، ١٩٩٢م، ص٣٦٠-٣٦١) والجدير بالذكر أن هذه الحمامات، ارتبطت ببعض المعتقدات التي نشأت بين السكان، ومرتادي بعض الحمامات، فصار بعضها محجاً لنيل البركة، والاستشفاء، كحمامي المولى إدريس، وأحمد الشاوي، اللذين يعتبران حمامين مباركين.(المصدر نفسه، ص ٣٦٤).

ووردت الحمامات في كتاب «إفريقيا» لمارمول كربخال، حيث ذكر أن فاس تضم «حمامات عدة، تشكل أهم تسليات المدينة، يذهب إليها النساء والرجال للاستحمام، هؤلاء في الصباح، وأولئك في المساء، ويترددون إليها كثيراً من أجل النظافة». (كربخال، ١٩٨٩م،

ص ١٤٧). كما ذكر ليفي بروفنسال، في كتابه «نخب تأريخية» في حديثه عن بناء فاس الجديد، أنه بنى بها حمام عظيم. (بروفنسال، ١٩٤٨م، ص٥٠)

يستنتج من هذا المبحث ما يلي:

١. المصادر الأجنبية المُعرَّبة لم تتناول الأسوار والأبواب بشيء من التفصيل، كما تناولته المصادر العربية، إنما أشارت إليها في سياق الحديث عن وصف المدينة.

٢. تضم فاس فنادق عديدة، تتشابه في البناء، وتختلف في الوظيفة، النوع الأول يستخدم لإيواء الناس العابرين، والماشية، وهو شبيه بخانات الشرق، والنوع الثاني يستخدم لإيداع البضائع، ولمختلف المنتجات الصناعية والتجارية.

الاستنتاجات:

١. أن المصادر العربية والأجنبية أسهمت في تقديم صورة عن التراث الثقافي لمدينة فاس على مر العصور، من خلال وصفها للمباني الأصيلة، والأنماط المعمارية السائدة في كل دولة حكمت المدينة، الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى الحفاظ على تراثها العمراني، فكانت مصدراً مهماً للمهندسين المعماريين لترميم المباني المتهالكة، وإعادة إحياء ما اندثر منها، وفقاً لما أوردته تلك المصادر من وصف دقيق لها، وبالتالي أسهمت في الاعتراف بالمدينة كموقع تراث عالمي من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).

٢. أن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لابن أبي زرع، يُعد مصدراً رئيساً، لا غنى عنه، في كتابة تاريخ مدينة فاس، يؤكد ذلك رجوع أغلب من كتب عن المدينة إليه.

٣. أن المكانة الثقافية التي تتمتع بها مدينة فاس، ووجود أقدم جامعة في قلبها، ولا تزال قائمة حتى اليوم، أدى إلى اجتذاب العلماء والكُتَّاب، والعرب والمستشرقين، للكتابة عنها، وعمَّا تمتلكه من إرث ثقافي.

٤. أن الكتابة عن مدينة فاس وإرثها الثقافي أدت دوراً مفصلياً في اجتذاب الحركة الاستشراقية الأوروبية، خصوصاً خلال القرن التاسع عشر، ما جعلها تسلط الضوء على المدينة وأهميتها الثقافية، وزيادة أطماع الدول الأوروبية الإمبريالية على المنطقة ككل.

٥. أن المصادر العربية والأجنبية الواصفة لتراث مدينة فاس الثقافي تعدّ مرجعاً مهماً للعاملين في قطاع التراث والثقافة، والعاملين على جرده وتوثيقه وحمايته، بحيث تعينهم على إعداد المسوحات التخطيطية، وتضمينها في سجلات التراث الثقافي الوطني.

٦. أن أغلب المصادر الأجنبية هيمنت عليها وجهة نظر الدراسات الاستشراقية في وصف المدينة وساكنتها، وفي تحليل بعض أوضاعها السياسية، ومظاهرها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وأن الغالب عليها أنها تعتمد تفسيرات تنبع وفقاً لأيديولوجيتها الخاصة بعيداً عن الموضوعية.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أقصبي، منير (٢٠١٥م): العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء– المغرب.

٢. البكري، أبي عبيد عبد الله (ت٤٨٧هـ)، (٢٠٠٣م): المسالك والممالك، دار الفكر، بيروت– لبنان.

٣. بروفنسال، ليفي (١٩٤٨م): نخب تأريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى، مطبوعات لاروز، باريس– فرنسا.

٤. الجزنائي، علي (ت٧٤٩هـ)، (١٩٩١م): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط– المغرب.

٥. الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر (٢٠٠١م): معلمة المغرب، مطابع سلا، الرباط– المغرب.

٦. الزركلي، خير الدين (٢٠٠٢م): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان.

٧. الطاهري، أحمد صالح، وعوني، الحاج موسى (٢٠٢٠م): العمارة والفنون بمدينة فاس المكونات والمميزات، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط– المغرب.

٨. طوريس، دييغو دي، تاريخ الشرفاء، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء– المغرب.

٩. عبد الرازق، هالة (٢٠١٣م): أسواق فاس في العصر المريني (٦٤٦–٨٦٩هـ / ١٢٤٨ – ١٤٦٥م)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة– مصر.

١٠. العمري، ابن فضل الله شهاب الدين (ت٧٤٩هـ)، (٢٠١٠م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

١١. الفاسي. الحسن، محمد، الوزان (ت٩٢٧هـ)، (١٩٨٣م): وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان.

١٢. الفاسي، علي بن أبي زرع (ت٧٤١هـ)، (١٩٧٢م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط– المغرب.

١٣. فنان، عبدالقادر،(١٩٨٩م):الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة، مديرية التراث الثقافي، تزنيت– المغرب.

١٤. كربخال، مارمول (١٩٨٩م): إفريقيا، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط– المغرب.

١٥. كنون، عبدالله، النبوغ المغربي في الأدب العربي .

١٦. كنون، عبدالله (١٩٦٣م): ابن أبي زرع، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ١٦–٤٣، ٥٤.

١٧. لوطرنو، روجي (١٩٩٢م): فاس قبل الحماية، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان.

١٨. شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت):

١٩. مقال منشور بعنوان: سوق الصباغين بمدينة فاس ألوان ماض باذخ ترسم ملامح مستقبل مجهول، https://www.hespress.com/%D8%B3%D9%88%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%A8%D8%A7%D8%BA%D9%8A%D9%86-%D8%A3%D9%84%D9%88%D8%A7%D9%86-%D9%85%D8%A7%D8%B6-%D8%A8%D8%A7%D8%B0%D8%AE-%D9%88%D9%85%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D9%84-%D9%85%D8%AC-1067697.html

الرسائل الجامعية:

١. براهيمي، مريم (٢٠١٨–٢٠١٩م): مدينة فاس بالمغرب الأقصى دراسة حضارية (١٧٢–٥٤١هـ) / (٧٨٩–١١٤٧م) رسالة ماجستير ، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

٢. الجندي، علي(٢٠٠٤م): مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية.